

التي عندها قوارب تسير تحت الماء وان خاطرت ببق الخوف مستولياً على بحارتها فلا يستطيعون ان يملوا عملاً بحرياً

## التربية والحجاب

من كتاب 'المرأة الجديدة' لتاسم بك امين القاضي بمكة الاستئناف المصرية

لولم يكن في الحجاب عيب الا انه مناف للحرية الانسانية وانه صار للمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الفراه والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاية مساوية لكفاية الرجل وجعلها سجينه مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لولم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكني وحده في مقتده وفي ان يفر منه كل طبع غرزي فيد الميل الى احترام الحقوق والثمور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرران تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن ان يستغنى عنها فما هي التربية التي تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كترية الرجل او تخصص بتربية اخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب او لا بد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تؤخذ من العلوم الغربية الحديثة او يرجع فيها الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل في باب التربية والحجاب وقد دار البحث والجدال فيها في العام الماضي بين كثير من الكتاب والآن نريد ان نبدي رأينا فيها على غاية من الوضوح

في المسألة الاولى — لا نجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل . اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة بحاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان نشجعها على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللواتي يشاركن افاريهن الرجال في اغلب الرياضات البدنية . ولانهم ان تعتمد ذلك من اول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع والا ضعفت صحتها وصارت عرضة للامراض . ذلك لان النوايس الطبيعية تقضي بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم وما يفقده بحيث لو اخلل هذا التوازن فسدت الصحة واخذل نظامها . والامراض التي تصيب الانسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست باقل عدداً ولا باخف ضرراً من الامراض التي تصيب من يفتق قوته ولا يعوض بالتفذية ما فقد منها . ثم ان ما نقاسيه المرأة من الالام

والمشقات حين الولادة في مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولا يخمله من النساء الأقويات المزاج صحبات الاجسام كسواء القرى المتعودات على العمل البدني المتعمات بالهواء النقي. أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لمن علي احتمال هذه المشقات ولذلك فإن أكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الأولى وكثيراً ما يهلكن فيها فقد بلغ عدد من يموت منهن في النفاس أكثر من ثلاثين في الألف وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من المرض والموت كذلك يلزم العناية بصحتها حرصاً على صحة اولادها ووقايتهم من العلل. لان ما يعرض على مزاج الام وما يكون فيجب من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

واما من جهة التربية الادبية فلان الطبيعة قد اخذت المرأة وتدبيرها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق واتخذتها عليها. فهي التي ترفع النفوس وهي سياذجة لا شكل لها فتصوغها في اشكال الاخلاق وتنتشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقاً للامة بعد ان كانت اخلاقاً للعائلة كما كانت اخلاقاً للعائلة بعد ان كانت اخلاقاً للأم. هذا يدلنا على ان المرأة الصالحة هي النفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي اضرار عليه من الرجل الفاسد. ولعل هذا هو السبب في ما وفر في نفوس الناس في كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها أكثر مما حطت من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلت من شأن المرأة ما لا تعلت من شأن الرجل

بقي علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية. هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون والعناية التي تربي اليها هي ان يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات حتى اذا عرف ذلك على حقيقته امكنه ان يوجه اعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتبع بلذة المعرفة فيعيش سعيداً.

ولا تحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها بالقرآن والكتب واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضاً لتعلم اصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات واحوال الانسان كما انها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاغضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد. حتى اذا انتهت مدة تعليمها في المدارس استمر شوقها الى الحق فتتحرك دائماً اليه وتعتبر به وأضف على ذلك ان ينبغي على البنات ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بدّ لنا من استطلاقات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتخمّة الميل في نفسها الى الثنون الجميلة . واني على يقين من ان اغلب القراء لا يستحسنون ان تعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة في الاشتغال بهذه الذنون ومنهم من يعدّها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوم الفاسد انحطاط درجة هذه الذنون في بلادنا الى حدّ يأسف عليه كل من عرف ما لها من الفائدة في ترقية احوال الامم . هذه هي التربية التي نود ان تكون للبنات وقد بيّناها اجمالاً لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلاً . هذه هي التربية الكاملة التي تيسر للمرأة الجمع بين واحباتها المختلفة المتعددة فتعدّها لأن تكون انساناً يكسب عيشه بنفسه وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء واما صالحة لتربية اولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتخمّة قواها الجسمية وملاكاتها العقلية تكون قد بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرها فما الذي ينبغي ان تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أمحجّب في بيتها وتمنع عن مخالطة الرجال أم تطلق لها الحرية في ذلك ؟ هذا هو موضوع البحث في المسألة الثانية والثالثة وستتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط رأى المتقدمون على تحرير المرأة اننا تطرفنا في مسألة الحجاب واننا اشرفنا برفعنا تقليدنا للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائهم والمحافظة عليه وقالوا ان الذي حطّ بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلوترت تربية حسنة لاممكنها وهي في الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام . على اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل او كتب في هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه الا وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليه

ولا نرى سبباً للغلاف بيننا وبين مناظرنا الا الاختلاف في فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هي التعلّم وذلك يتم على رايهم بمكث الصغير في المدرسة سنين تعدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانه متى نال هذه الورقة السمكية التي سماها بعض ظرفاء الفرنسيين ( جلد حمار ) عند بالغاً في العلم والادب حدّ النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد ان التربية لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيد به الصبي من ذلك في ايام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلفه

ذلك لان الصبي في السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمره لا يعرف من العلم الا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها في جمل تخرصة . وبها كانت هذه القضايا علمية او

ادية فلا قيمة لها إلا بظهورها في العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحددها دائرة تطبيقها والحد الذي يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التي تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها . وهذه التطبيقات هي الوساطة الوحيدة في فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد إلا الفاظاً وخيالات

وكذلك الحال في الآداب والاخلاق . اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهره نفسه ولكن لا شيء اصعب في العمل من ان يأتي ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواه وجملة تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة . ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بيده وبين النقائص ولا بمجرد حبس ذهنه بالقواعد الادية وانما تولد بالتعرض للافاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها فزاوله الاعمال ومشاهدة الحوادث واختيار الامور وتغالطة الناس والاضحكك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها تربي النفوس الكريمة حتى تبلغ اعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدرجات

والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم الا من نوافذ الجدران او من بين استار العربية ولا تمشي الا وهي كما قال الامير علي القاسمي "ملتفة بكفن" لا يمكن ان تكون انساناً حياً شاعراً خبيراً باحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

ولا يكفي لاجراح المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين في المدرسة ثم تنتقل منها الى بيت تحجب فيه بقية عمرها بل يلزم ان تستمر في الاعناء بحسبها وعقلها بمد المدرسة . يلزم ان تضع يدينا في يدها ونسير معها في الارض ونزيرها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر . يلزم ان نقاسمنا افكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فستفيد مما يعرض فيها من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملتنا على رعاية الحسنة والتأديب في القول

يقول معترض : "انا تراك تريد ان تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية فها أعرت تمدنا القديم الذي كان من اصوله احتجاب النساء نظرة وهل من تدرس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلقت الى اصوله لفتة عميلة ترى انه هو المجد الصحيح الذي يجب ان نشده له رواحل العزائم والذي سينضح للعالم اجمع يوماً ما انه هو نفس الكمال الذي بنشده الانسان وبلتمة الوجدان"

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطاوة لفظه وربما يجذب اليه لانه يحرك الميل  
الغريزي الموجود في كل انسان الى التعلق بانثار الآباء والاجداد . ولكن الاجدر بنا ان لا  
نجعل للفظ تأثيراً فنياً الى حد يذهلنا عن الحق . وعلينا ان نأخذ اجبتنا لمقاومة سلطة الماديات  
المرروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لا يحتاج الى التحريض  
والتغيب لانه حالة لازمة للنفس اخذة بزمامها فهي مستغرقة فيها من ذاتها وانما الذي يحتاج

للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماضٍ ضارٍ واعتناق مستقبل نافع

اذا امكنا ان نأخذ تلك الاحبة كان من اهم ما يجب علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي  
القديم ونرجع اليه ولكن لا ننسج منه صورة ونخندي مثال ما كان فيه سواء بسواء بل لكي  
ترى ذلك التمدن يميزان العقل وتندبر في اسباب ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها  
ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء نتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان

ظهر الدين الاسلامي في جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون في حال البداوة اي في  
ادنى الحالات الاجتماعية فوجد بينهم رابطة مليه واخضعهم الى رئيس واحد ووضع لهم شرعاً  
نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة في معاملتهم من قديم الزمان . ولما امرهم بالجهاد اخذوا  
بحاربون الامم الاخرى واستولوا عليها ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الامم في  
العلوم والصنائع ولكن كان يروح الوحدة التي بعثها الاسلام فيهم مع استعدادهم النظري للقتال  
فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الامم  
كثيراً من العلوم والصنائع والفنون فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم وسمحوا لاولئك  
المغلوبين ان ياتوا في ترقيةها بما شاؤوا . وظهرت عند ذلك نهضة علمية كما هو الشأن في الامم  
عقب كل انقلاب يجري لغاية صالحة استمرت مدة اربعة قرون تقريباً

على هذين الاساسين شيدت المدينة الاسلامية . الاساس الديني الذي كوّن من القبائل  
العربية امة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشريع واحد . والاساس العلمي الذي ارتقت به  
عقول الامة الاسلامية وادابها الى الحد الذي كان في استطاعتها ان تصل اليه في ذلك العهد  
ولكن لما كان العلم في تلك الاوقات في اول نشأته وكانت اصوله ضروباً من الظنون لا  
يؤيد اكثرها بشيء من التجارب كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين فتغلب الفقهاء على  
رجال العلم ووضعهم تحت مراقبتهم وزجوا بانفسهم في المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث انهم  
لم ياتوا اليها من بابها ولم يجهدوا انفسهم في فهمها اخذوا يؤولون الكتاب والاحاديث بتأويلات  
استنبطوا منها ادلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على ان يعيشوا الظن بها وما زالوا

يظنون على رجال العلم ويروونهم بالزندقة والكفر حتى نقر الكل من دراسة العلم وهجره وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بان العلوم جميعها باطله الا العلوم الدينية . بل غالوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية قسمها انها لا بد ان تقف عند حد لا يجوز لاحد ان يتجاوزهُ . فقررُوا ان ما وضعت بعض الفقهاء هو الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد ان يخالفهُ وكأنهم رأوا من قواعد الدين ان تُسدَّ ابواب فضل الله على اهل اجمعين

هذا النزاع الذي قام بين اهل الدين واهل العلم ولا اقول بين الدين والعلم لم يكن خاصاً بالامم الاسلامية بل وقع كذلك عند الامم الاوربية . ولكن لما كانت هذه الامم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب وكان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينا لم تتجج اوروبا الى زمن طويل في اكتشاف الاصول الحقيقية لتلك العلوم . وقد نالت منها في مائتي سنة ما لم يتلَّهُ غيرها في آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضاً ويرشد بعضها الى بعض . فمنها اكتشاف قوانين سير الكون وتحليل الضوء وسرعة سيره وكيفية تكوُّن الاصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها . وعلمت ماهية الحرارة وكيفية تكوُّن الكرة الارضية وحقيقة شكلها وتكون طبقات الارض وتقدم الاعصار عليها وعلى سكانها وضرور التغييرات التي طرأت عليها والادوار التي تقبلت فيها من وقت ان كانت كتلة نارية الى ان ظهر فيها النوع الانساني بعد جميع الانواع الاخرى . ثم عرفت قوانين الحياة ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم وخصائص قوى الادراك وكيف لتكوُّن خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تقي . وصححت وكملت اصول الكيمياء والطبيعة

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناءً متيناً لا يمكن لعاقل ان يفكر في ان يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين في اوروبا بعد النزاع والجهاد وانتهى الحال بان صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة

فاذا كان التمدن الاسلامي بدأ وانتهى قبل ان يكشف النظار عن اصول العلوم كما يتناه فكيف يمكن ان نعتقد ان هذا التمدن كان " نموذج الكمال البشري " بهمتنا ان لا نجح اسلافنا حقهم ولا نقص من شأنهم ولكن بهمتنا مع ذلك ان لا نقص انفسنا بان نتخيل انهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس وراءها غابة

نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من مماعها . لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه لانه يحوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ويجب عليه ان يعجب به لانه عمل

انتفعت به الانسانية وكلت به ما كان ناقصاً منها في بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . اما من جهة العلم فالامر ظاهر لما سبق بيانه . واما من جهة المنظمات السياسية فلاننا معا دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند اهل تلك العصور ما يستحق ان يسمى نظاماً فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة او سلطان غير مقيد يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين فكان الحاكم وعامله يجرون في ادارتهم على حسب ارادتهم فان كانوا صالحين رجعوا الى اصول العدالة بقدر الامكان وان كانوا غير ذلك خرجوا عن حدود العدالة وعاملوا الناس بالعرف ولم يكن في النظام ما يردم الى اصول الشريعة

ربما يقال ان هذا الخليفة كان يرئى بعد ان يبايعه افراد الامة وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الامر . ونحن لا ننكر هذا ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب الا بعض دقائق هي سلطة لفظية . اما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الامر فهو الذي يعلن الحرب و يقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الاحكام ويدبر مصالح الامة مستبداً برأيه ولا يرى من الواجب عليه ان يشرك احداً في امره

ومن الغريب ان المسلمين في جميع ازمان تمدنهم لم يبايعوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الامة الرومانية من جهة وضع النظم اللازمة لحفظ مصالح الامة وحربتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في ادارة شؤونها واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الاعمال التي وجدوا انها تستحق العقاب ويحدد العقوبات عليها بل تركوا حتى التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء . مع ان بيان الجرائم وعقابها هو من اوليات اصول العدالة

واست محتاجاً ان اقول انهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان هذه العلوم حديثة العهد . واذا اراد مكابر ان يتحقق من ذلك فاعليه الا ان يتصفح مقدمة ابن خلدون وهو الكتاب الفرد الذي وضع في الاصول الاجتماعية عند المسلمين يرى ان الاصول التي اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطأ ويندهش على الخصوص عند ما يرى ان هذا الكتاب الذي وضع للبحث في المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة في العائلة التي هي اساس كل هيئة اجتماعية

فاذا كانت حالتهم السياسية كما ترى فما الذي يطلب منا ان نعتبره منها ؟  
كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجد انها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل

يكتفي في عقد زواجه بان يكون امام شاهدين ويطلق زوجته بلا سبب او باوحي الاسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر الى الآن على ما هو مشهور ولم يذكر احد من الحكماء او الفقهاء في وضع نظام يمنع ضرر انحلال روابط العائلة . واقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل ان يقرروا مثلاً ان ابقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لا بد ان تكون امام مامور شرعي حتى لا تبقى هذه الشؤون موضعاً للريب ومحللاً للشبهة ومثاراً للنزاع والتناق

اين هذه الفوضى من المنظمات والقوانين التي وضعها الاوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية . بل اين هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميع ادوارها عن اهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية ؟ فاي شيء من هذا يمكن ان يكون صالحاً لتحسين حالتنا اليوم ؟

بقي علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي من جهة الآداب . يعتقد اهل عصرنا ان المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع انواع "الكلمات الاخلاقية الصحيحة" وهو اعتقاد غير صحيح او على الاقل مبالغ فيه . اما من جهة اصول الأدب فالعلم ان المسلمين لم يأتوا العالم باصول جديدة . فقد سبق المسلمين امم كاليهود والنصارى والبهوديين والصينيين والمصريين وغيرهم وقد كانت تلك الامم تعرف تلك الاصول وضمنتها كتبها ونزلت على بعضها في وحي صاوي . واما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الاصول الادبية فالتاريخ يشهد ان كل عصر لا يخلو من الطيب والريء والحسن والقيح وقد وصلت الينا اخبار العرب مدونة في الكتب التاريخية والادبية فكشفت لنا الفظاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم واطاعتنا على شعرهم وامثالهم وانانيهم فما وجدنا زهناً من الازمان خالياً من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبايع الدنيئة . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى آخر ايامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن التباغض والحقد وحب الذات حتى في الاوقات التي كانت فيها الدولة مشغولة باهم الحروب مع الامم الاخرى . رأينا احد اولاد علي رضي الله عنه تزوج باكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده ان يصحح الناس بان لا يزوجه بناتهم . رأينا من الرجال من كان يعترض النساء في الطريق ويختلس النظر اليهن من خروق الحائط . رأينا من امرائهم واعظهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعي ما يقول في مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين بنغات الموسيقى . رأينا من شعرائهم من يستجدي العطايا ويمد يده مائتساً رزقه من فضلات الامراء والاغنياء ومنهم من يمدح نفسه ويشي عليها وينهب في ذلك الى حد ليس

بعده الأجنون أو يتفزل في ولد أو يهجو خصمه بعبارات الفحش والفاظ الوقاحة التي يستحي من تصورها فضلاً عن النشور بها . رأينا من مؤرخيهم من يزور في التاريخ ومن نقباءهم من يخترع الاحاديث ويضها لغايتها الذاتية

فأي زمن من الأزمان السابقة كان منزهاً عن العيوب حتى يصح ان يقال انه " نموذج الكمال البشري " الكمال البشري يجب ان لا نبحث عنه في الماضي بل ان اراد الله ان يمن به على عباده فلا يكون الا في مستقبل بعيد جداً

متى نقرر ان المدنية الاسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليه لا بما كانت في الحقيقة عليه وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة فيان عندنا بعد ذلك ان كان احتجاب المرأة من اصولها او لم يكن . وسواء صح ان النساء في ازمان خلافة بغداد او الاندلس كن يحضرن مجالس الرجال او لم يصح فقد صح ان الحجاب هو عادة لا يلبق استعمالها في عصرنا

ونحن لا نستغرب ان المدنية الاسلامية اخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطأها في ذلك اكبر من خطأها في كثير من الامور الاخرى

وغني عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التي يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التي اخصت بها . ذلك لان عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الاثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الامم التي سبقت والذي اراه ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الاهواء التي يجب ان ننهض جميعاً لمحاربتها لانه ميل يجرنا الى التذني والتقهقر . ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الا شعورنا باننا ضعاف عاجزين عن انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن ان تستقيم بها مصالحنا . فهو صورة من صور الاتكال على الغير كأن كلاً منا يتأجج نفسه قائلاً لها : اتركي الفكر والعمل والنساء واستريحي فليس في الامكان ان تأتي بابدع مما كان

هذا هو الداء الذي يلزم ان نادر الى علاجه . وليس له من دواء الا اننا نربي اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها واذا اتى هذا الخبن ونرجوان لا يكون بعيداً المجت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا انه من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة وان احوال الانسان معها اختلفت وسواء كانت مادية او اديبية خاضعة لسلطة العلم . انتهى